عناية الشعراء بتجديد الصورة الفنية في العصر العباسي

الدكتور حارث مبين *

الدكتور نور زمان مدني **

The study the Arabic poetry in Abbasid period shows that it was the era of evolution and growth for Arabic literature especially for its poetry, because poetry in this period came out of the control of obedience to the poetic tradition, and new images of Arabic poetry were developed from the old images, as most of the poets of this era have developed and renewed in the poetic formulation and mastered it after the pardons of piety in the pre-Islamic, Islamic and Umayyad era came, the poets of those ages were not familiarized as poets of this age, although poetry preserved traditions to some extent but the features of renewal are clear.

In this research I will discuss the factors of renewal in the Abbasid era and its manifestations. The research included the introduction and impact of the manifestations of development and its models.

Key words: Poetry, Abbasid, renewal, manifestations of development, Rhetorical, verbal & philosophical formulation.

إذا درسنا الشعر العربي العباسي يظهر لنا التطور والنمو في مسار الشعر العربي في هذا العصر، لأن الشعر في هذا العصر خرج من سيطرة الإذعان للتقاليدالشعرية، فتطورت صورة الشعر واختلفت من الصور القديمة، فأغلب الشعراء في هذا العصر قد إستحدثوا وجدّدوا في الصياغة الشعرية وتفنّنوا فيها بعد أن كانت تأتي عفو الخاطر في العصر الجاهلي والإسلامي والأموي، فشعراء تلك العصور لم يكونوا يتعمدونها مثل شعراء هذا العصر، على الرغم من أن الشعر حافظ على التقاليد إلى أيّ حدّ إلاّ أن سمات التجديد واضحة.

في هذا البحث سنتناول عوامل التجديد في العصر العباسي ومظاهرها، وقد إشتمل البحث على تمهيدٍ و أثر مظاهرالتطور ونماذجها، تناولت في التَّمهيد عوامل التجديد في الصورة الفنية.

* الأستاذ المساعد، قسم اللغة العربية، جامعة بنجاب لاهور

** الأستاذ المساعد، قسم اللغة العربية،نيشنل يونيورسٹی آف ماڈرن لينگويج،سيكٹر ا يچ ۹ اسلام آباد

أما بالنسبة إلى مظاهرالتطور فقسمتها إلى أربعة محاور، أولها سهولة الألفاظ وأناقتها، ثانيها البديع اللفظي، ثالثهاالتفنن في المعاني، ورابعها المصطلحات اللفظية والصياغة الفلسفية.

عوامل التجديد في الصورة الفنية

1- الحضارة الجديدة:من العوامل المساعدة على ذلك إنتصار الحضارة الجديدة في هذا العصر الذي شمل الحياة المادية والفكرية، لقد بلغ العصر العباسي ذروة المجد والحضارة لإختلاط العرب بغيرهم من الأمم حتى نرى أثر ذلك في إقتباس بعض الألفاظ اليونانية والفارسية إلى العربية، وبالعكس، وأن العراق آنذك أصبحت حاضرة العلم والثقافة.

2- ترجمة الكتب المتنوعة: لقد كانت الدولة العباسية مزيجا من شعوب كثيرة لإنتشار الإسلام في أقطار العالم، وتقرب الأمم المغلوبة، وانضمام رجال العلم والفنون من مختلف الأجناس تحت لواء الدولة العباسية في العراق الذين تعلّموا العربية، وترجموا كتب الفنون والآداب المختلفة إليها.[1]

3- البراعة في الفنون: نبغ العلماء في أنواع العلوم والفنون، وأقرّ بفضلهم الشرق والغرب.

4- الإزدهار من الناحية المادية: وكذلك وقع الإزدهار من الناحية المادية حيث "تزيد أحوال الرفة والدعة فتجيء عوائدالترف البالغة مبالغها في التأنق في علاج القوت وإستجادة المطابخ وانتقاء الملابس الفاخرة في أنواعها من الحرير والديباج وغير ذلك، ومعالاة البيوت والصروح، وإحكام وضعها في تنجيدها، والإنتهاء في الصنائع في الخروج من القوة إلى الفعل إلى غاياتها، فيتخذون القصور والمنازل، ويجرون فيها المياه،ويعالون في صرحها، ويبالغون في تنجيدها، ويختلقون في إستجادة ما يتخذونه لمعاشهم من ملبوس أو فراش أو آنية أو ماعون"[2].

بسبب هذه التحولات الثقافية والإجتماعية التي تعرضت لها البيئة العربية في هذا العصر كان من الطبيعي للشعر والفكر أنيتأثرا بهذا التطور، وأن يتجاوزا حدود الذات ويتطلعا إلى الحياة، لذا ظهرت ألوان ومذاهب عديدة في الشعر في هذا العصر.

5- تذوق الخلفاء للأدب: ومن عوامل التحديث غير ما ذكرنا تذوق الخلفاء ورجال

الدولة للأدب، لأنهم "كانوا أهل حذق له، ومعرفة بالغة بفنونه، يروون الشعر وينقدونه، ويستهوون للشعراء ويجرون لهم العطاء، ويثيرون بينهم نار التنافس والتسابق بما يبينون من فاضل ومفضول، ولهذا تزاحمت على أبوابهم الشعراء من عامة الأقطار، فكانت للشعر نهضة كثر فيها القصيد والجاد"[3].

7- إنشاء المكتبات: وفي الأخير يأتي عامل هام من العوامل التي أعانت في تطور الحركة الشعرية في هذا العصر، هو إنشاء المكتبات العامة والخاصة[4]. وكان لهذه المكتبات تأثيرها القوي في تنشيط الحركة الثقافية.

إضافة إلى أن معظم الشعراء المحدثين الذين أثّروا على طبيعة الشعر العربي، وتفننوا في الصياغة الشعرية كانوا أجانب مثل أبي العتاهية، وبشار بن برد، وأبي نواس، ومروان بن أبي حفصة، ومسلم بن الوليد[5]، وكان شعرهم مرحلة متميزة من مراحل الشعر العربي فقد إعتاد الدارسون أن ينظروا إليه على إعتبار أنه يشكل تيّارا مستقلا في الشعر العربي، على الرّغم من أنهم نشؤوا في بيئات عربية خالصة، وتثقفوا بالثقافة العربية إلاّ أن أصولهم الأجنبية أثرت في شعرهم.

بفضل هذه العوامل التي ساعدت على نمو الحياة الثقافية والإجتماعية تأثر الشعر العربي صورة ومعنى حيث تطورت وسائل الأداء والصياغة، وتجدّدت الموضوعات والأغراض التي لم تكن مألوفة في العصور السابقة، "وبدأت تتّضح سماته على يد بشار بن برد، وإبراهيم بن هرمة ومن تلاهما من الشعراء حتى إنتهى هذا التيّار إلى مداه عند أبي تمام"[6].

والآن نأتي إلى مظاهر تطور الصورة الفنية في الشعر العربي في هذا العصر ونماذجها.

مظاهر التطور ونماذجها

1- سهولة الألفاظ وأناقتها.

في العصر العباسي إتسعت اللغة العربية لثقافات الأمم التي دخلت في جسد الدولة العباسية، كالصينية والهندية والفارسية وتلك التي كانت مجاورة للحضارة العربية كاليونانية والرومانية، ولإباحة حرية الفكر وحرية التعبير كما سبق، فكثر إستخدام الألفاظ الحضارية والسهلة الرشيقة "واختار الناس من الكلام ألينه وأسهله، وعمدوا إلى كل شيء ذي أسماء كثيرة فاختاروا أحسنها سمعا وألطفها من القلب موقعا"[7].

ليس معناه أن الشعراء القدامي يتفردون بخشونة الألفاظ وضخامتها، والمولودين بعذوبتها وأناقتها، لأن لغة الشعر تختلف باختلاف الموضوعات وأحوال قائليه، أحيانا يجد القارئ أشعار المولدين لا تخلو من النزعة الأعرابية، كما توجد آثار النعومة والرقة في الشعر الجاهلي والإسلامي والأموي، لكنها لغلبتها في العصر العباسي أصبحت سمة يمتاز بها هذا العصر، وهي تكاد تجعل أسلوب الشعر العربي أسلوباً نثرياً "وهو أسلوب لا ينسى حقوق هذا العصر في البعد عن الكلام الوحشي الغريب، والكلام السوقي المبتذل، فهو اسلوب مرن فيه سلاسة وسهولة ووضوح، وفيه رشاقة وعذوبة، أسلوب لا يتوعر، ولا يسلم إلى تعقيد يفسده ويهجنه، معاينه ظاهرة مكشوفة، وألفاظه لا تلطف، ولا تجفو عن الخاصة، مع أناقة التعبير ودقة الحسّ والذوق"[8].

لم يكن سبب استخدام هذه اللغة عدم البراعة والحذق بأساليب العربية الخاصة، كانوا أعظم من أن يتهموا بذلك، نعم لا ينكر عن ريادة القدماء في تهذيب الألفاظ وتقييد الأوابد، لكن هذا لا يعني أن شعر المحدثين فوضى ولا روح فيه، فإن "لكل منهما مزايا فنية يشتركان في بعضها ويختلفان في أخراها، والتأخر الزمنى لا يضر لنبوغهم الفنى، إذ الجودة الفنية لا تقاس بالقدم والحداثة، والشعر الجيد جيد في كل زمان ومكان"[9]. والفضل لمن أحسن وأجاد لا لمن تقدّم أو تأخّر.

إضافة إلى أنهم نهلوا من منابع الشعر القديم كما استفادوا من العلوم الحديثة الوافدة من الحضارات الأجنبية،فتشبعوا بالقديم والجديد "بحيث لا يبغي أحد الطرفين على صاحبه، وبحيث يأتلفان ائتلافا بديعا، بل بحيث يكوّنان عالم الشعر العباسي الذي يملأ النفس العربية من جميع جوانبها إعجابا وافتنانا بمهارة الشاعر العباسي وقوة ملكاته"[10] الذي حفظ دواوين القدامى وسمع معاصريه، وكان منشغلا باللغة والشعر، كما يحكي أبو القاسم الأصفهاني عن المتنبي "وجملة القول فيه أنه من حفاظ اللغة ورواة الشعر"[11]

وروي عن أبي نواس بأنه أكبّ على دواوين الجاهليين والإسلاميين من أصحاب القصيدوالرجز يستظهر حتى قالوا: إنه كان يحفظ دواوين ستين امرأة فضلا عن الرجال وفيه يقول الجاحظ: ما رأيت أحدا أعلم باللغة من أبي نواس ولا أفصح لهجة مع

حلاوة، ومجانبة لإستكراه، ويقول أبو عمرو الشيباني العالم اللغوي المشهور: لو لا ما أخذ فيه أبو نواس من الرّفث لاحتججنا بشعره، لأنه محكم القول. ويقول بشار الفارسي الأصل زعيم المحدثين: ولدت هنا (فى البصرة) ونشأت في حجور ثمانين شيخا من فصحاء بني عقيل، ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ، وإن دخلت على نسائهم فنساؤهم أفصح منهم، وأيفعت فأبديت (دخلت البادية) إلى أن أدركت (بلغت الحلم) فمن أين يأتيني خطأ[12].

فلا يتصور منهم أنهم غير قادرين على الصياغة القديمة، والحقيقة أنهم لو يثوروا عليها بل عكفوا عليها وطوّروها حسب حاجات الزمان حتى أصبحوا "لات الشعر وعزّاه ومناته الذين ظهرت على أيديهم حسناته، وقد حوت أشعارهم غرابة المحديثين إلى فصاحة القدماء"[13].

ويشهد به الثعالبي قائلا: كانت أشعار الإسلاميين أرق من أشعار الجاهليين، وأشعار المحدثين ألطف من أشعار المتقدمين، وأشعار المولدين أبدع من أشعار المحدثين، وكانت أشعار العصرين أجمع لنوادر المحاسن، وأنظم للطائف البدائع من أشعار سائر المذكورين لانتهائها إلى أبعد غايات الحسن، وبلوغها نهايات الجودة والظرف تكاد تخرج من باب الإعجاب إلى الإعجاز، ومن حد الشعر إلى السحر، فكأن الزمان ادّخر لنا من نتائج خواطرهم، وثمرات قرائحهم، وأبكار أفكارهم أتم الألفاظ والمعاني استيفاء لأقسام البراعة، وأوفرها نصيبا من كمال الصنعة ورونق الطلاوة.[14]

لقد اتضح القول أن شعر المحدثين نال إعجاب العلماء والنقاد صورة ومعنى، قديما وحديثا، وأنهم عمالقة الشعر العربي، جامعون بين القديم والجديد.

ومما يصور شيوع ظاهرة "سهولة الألفاظ وأناقتها" في هذا العصر قول أبي العتاهية في زجر الغافل عن نكبات الدهر وأحداثه، موجّها إليه حديثه يكاد يقترب من أسلوب العامة :

يأيها المتسمّن قل لي لمن تتسمن
سمنت نفسك للبلى وبطنت يا مستبطن
وأسأت كل إساءة وظننت أنك تحسن
ما لي رأيتك تطمئن إلى الحياة وتركن

يا ساكن الحجرات ما لك غير قبرك مسكن
اليوم أنت مكاثر ومفاخر تتزين
وغدا تصير إلى القبو ر محنط ومكفن[15]

لغة هذه الأشعار بعيدة عن الغرابة والإبتذال، لأن معظم أشعاره في الزهد، و "شعر الزاهد لا يخضع لما يخضع له شعر المدح والرثاء"[16] لأنه وعظ وهو لا يفتقر إلى لغة قوية فحولة، بل يقال في لغة سهلة رقيقة.

وقد كان أبو العتاهية يسف في غزله أحيانا، ومن المواقف التي تدل على سرعة قوله للشعر يذكرها صاحب الموشح قال: لقي ابن مناذر أبا العتاهية، فقال له أبو العتاهية: كم تقول في اليوم ؟ قال ربما قلت العشرين وأكثر، وربما خمسة أو ستة، فقال أبو العتاهية: لكني لو أشاء أن أقول ألف بيت لقلت، فقال ابن مناذر: أنا أقول مثل قولي:

هل لشيء فات من مردود أو لحي مؤمل من خلود

حتى أنشده جميع القصيدة (وهذه القصيدة قالها ابن مناذر في رثاء صديقه عبد المجيد) وأنت تقول :

ألا يا عتبة الساعة أموت الساعة الساعة

ولو رضيت أن أقول مثل هذا لأكثرت.[17]

وقول أبي نواس:

أين الجواب وأين ردّ رسائلي قالت ستنظر ردّها من قابل
فمددت كفي ثم قلت تصدقوا قالت نعم بحجارة وجنادل
إن كنت مسكينا فجاوز بابنا وارجع فما لك عندنا من نائل[18]

جمع الشاعر بين القديم والجديد، لكنه طوّع لغته وأسلوبه لخدمة الجديد، تتضح في أبياته سهولة اللفظ والأخذ من لغة الحديث اليومية المألوفة، والتي تدل على تطور الصنعة الشعرية في العصر العباسي.

وقول البحتري:

ما كفى موقف التفرق حتى عاد بالبث موقف الإجتماع
قوم إذا لبسوا الدروع لموقف لبسوا من الأحساب فيه دروعا[19]

على الرغم من أن القاري أحيانا يجد عند البحتري لغة سهلة رقيقة كما هو رأي الدكتور

شوقي ضيف[20] إلا أن صياغته في معظم قصائده مختلفة تماما من صياغة معاصريه حيث أنه يحقق في نظمه سلاسة اللفظ وفصاحته وجزالته، كما قال ابن سنان الخفاجي : "إنني لم أعرف شاعرا قديما ولا حديثا أحسن سبكا من أبي عبادة، ولا أحذق في اختيار الألفاظ وتهذيب المعاني"[21]

ومن دلائل التجدد اللفظي في العصر العباسي ظهور النقد البياني الذي جعل أساس البلاغة في الألفاظ السهولة والحلاوة والجزالة، ومما يدل على ذلك ما جاء في كتاب الصناعتين، "فإذا كان الكلام قد جمع العذوبة والجزالة والسهولة والرصانة، مع السلاسة والنصاعة، واشتمل على الرونق والطلاوة، وسلم من حيف التأليف، وبعد عن سماجة التركيب، وورد على الفهم الثاقب قبله ولم يردّه، وعلى السمع المصيب استوعبه ولم يمجّه. والنفس تقبل اللطيف، وتنبو عن الغليظ وتقلق من الجاسي البشع والفهم يأنس من الكلام بالمعروف ويسكن إلى المألوف"[22]

ومثل ذلك قول الجرجاني "وأما رجوع الاستحسان إلى اللفظ فلا يكاد يعدو نمطا واحدا، وهو أن تكون اللفظة مما يتعارفه الناس في استعمالهم ويتداولونه في زمانهم، ولا يكون وحشيا غريبا، أو عاميا سخيفا"[23]

1- البديع اللفظي

كثر تزيين الألفاظ بألوان البديع من المحسنات اللفظية والمعنوية في العصر العباسي، وبخاصة في شعر أبي تمام حتى قيل أنه "مذهب أبي تمام" وهو رأي النقاد الذين يزعمون أن أول من فتق البديع هو أبو تمام، وقيل "إن أول من فتق البديع من المحدثين بشار، وابن هرمة ساقة العرب وآخر من يستشهد بشعره"[24]

والصواب أن هذا الإتجاه لم يخترعه الشعراء المحدثون بل كان لونا قديما نرى آثاره في الشعر الجاهلي والإسلامي والأموي، وإنما تطور وكثر في أشعار المحدثين فنسب إليهم.

يقول غنيمي هلال "إن أصحاب البديع لم يأتوا بجديد، وإنما أسرفوا فيما كان يقع عليه القدماء بطبعهم الأصيل دون تكلف ولا صنعة"[25] ويردّ العسكري على الذين يعزون فضل ابتكاره للمحدثين "فهذه أنواع البديع التي ادّعى من لا رويّة ولا رواية عنده أن المحدثين ابتكروها وأن القدماء لم يعرفوها، وذلك لما أراد أن يفخم

أمر المحدثين، لأن هذا النوع إذا سلم من التكلف وبرئ من العيوب كان في غاية الحسن ونهاية الجودة"[26]

ويوجد هذا النوع عند القدماء كما مر، ولكنهم لم يكونوا يتعمدونها حتى جاء بشار أبو المحدثين فمهّد طريقه واستخدم أدواته بدون إسراف ولا تكلف، ثم جاء أبو تمام وأتباعه فأسرفوا فيه واتخذوا منه مذهبا، أطلق عليه اسم الصنعة أو البديع أو التصنيع كما وصفه الدكتور شوقي ضيف.[27] فمثلهم فيه مثل القدماء والمحدثين "ابتدأ هذا بناءً فأحكمه وأتقنه، ثم أتى الآخر فنقشه وزينه، فالكلفة ظاهرة على هذا وإن حسن، والقدرة ظاهرة على ذلك وإن خشن"[28]

فنسبته إلى بشار ليس خطأ لأنه عمد إلى تنميته، وكذلك إلى أبي تمام لأنه بالغ فيه وجعل منه مذهبا.

وأشار الدكتور نجيب البهيتي إلى توجيه آخر، وهو أن البديع في العصور القديمة لم يكن يقصد به المعنى المعروف في زماننا بل "يراد به إلى نحو من التجديد في معالجة الشاعر شعره باستخدام الصورة والإكثار منها، وتنويع وسائل الاستفادة بها، فيدخل فيه التشبيه والمجاز والاستعارة وقد يدخل تحت مدلول الكلمة المحسنات اللفظية أيضا فكلمة البديع في مدلولها تساوي كلمة "التجديد" في العبارة أو المعنى بالقلب أو التغيير أو التوجيه أو التحسين أو الإبتكار"[29] والبديع بهذا المعنى يبدأ من بشار لأنه أبو المحدثين، وهو الذي عدل عن طريقة القدماء في العبارة والمعنى. أما بالمعنى الذي نعرف به الآن فيبدأ دوره من أبي تمام لأنه تفرد فيه عن الشعراء الآخرين بشيء من الغموض والجمال على حد قول الآمدي[30]، وصدر منه بوعى وإدراك كامل.

وأنواع البديع كثيرة، كتب فيها العلماء منذ قديم، وأول من صنف فيها هو ابن المعتز الشاعر المشهور في القرن الثالث الهجري فجعل منها بضعة عشر نوعا، ثم قدامة بن جعفر فجمع منها نحو عشرين، وجاء العسكري في القرن الرابع فجعلها خمسة وثلاثين، ثم أخذ البيانيون والبديعيون يتفننون فيها حتى بلغت ما يزيد على المائة والخمسين[31]، والجناس والطباق هما الركنان الأساسيان منها ويليهما الترصيع والتورية، وبقية الأنواع.

ومن النماذج في هذا الإتجاه قول أبي تمام:

متى أنت عن ذهلية الحي ذاهل وقلبك منها مدّة الدهر آهل
تطل الطلول الدمع في كل موقف وتمثل بالصبر الديار المواثل
دوارس لم يجف الربيع ربوعها ولامرّ في أغفالها وهو غافل[32]

في هذه الأبيات لا يخلو شعر من جناس حيث نجد المجانسة بين ذاهل وآهل، وتطل والطلول، وتمثل والمواثل، والربيع والربوع، وأغفال وغافل.

وكثر جناس الاشتقاق عند الشاعر كما هو واضح في الأبيات المذكورة، وهذه مزية من مزايا الشاعر فاق بها على السابقين، لأن القدماء استخدموا الجناس السجعي والمزدوج، ومن مزيته الأخرى أنه يستخدم هذه الأدوات بطريقة فيها غموض.[33] ووصف الدكتور شوقي ضيف هذا الأسلوب بالزخرفة والتنميق، وقال فيه مدافعا عن الشاعر: وهما لا يحجبان عنّا مشاعر الشاعر وأحاسيسه.[34]

وقول ابن الرومي في الجناس المماثل وهو إذا كان اللفظان من نوع واحد كإسمين أو فعلين.[35]

للسّود في السّود آثار تركن بها وقعا من البيض يثني أعين البيض[36]

هنا السود الأولى جمع سوداء للجارية والثانية جمع سوداء القلب، كذلك البيض الأولى جمع أبيض والثانية جمع بيضاء للمرأة، والشاعر كان مولعا بالجوارى السود.[37]

وقوله في الطباق :

قلت لمّا بدت لعينيّ شنعا ربّ شوهاء في حشاء حسناء[38]

يطابق بين كلمتى شوهاء وحسناء.

ومن طباق السلب وهو الجمع بين فعلي مصدر واحد مثبت ومنفي أو أمر ونهي[39]، قول البحتري :

يقيَّض لي من حيث لا أعلم النوى ويسرى إليّ الشوق من حيث أعلم[40]

وقول المتنبي :

ولقد عرفتَ وما عرفتَ حقيقة ولقد جهلتَ وما جهلتَ خمولا[41]

وفي المشاكلة وهي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقا أو تقديرا[42] قول أبي تمام :

مَن مبلغ أفناء يعرب كلّها إني بنيت الجار قبل المنزل[43]

نكتفي بهذا القدر من الأمثلة، لقد كثر لدى المحدثين استخدام هذا الإتجاه بأنواعه المتعددة التي ملأت كتب الدراسات منذ نشأتها إلى هذا اليوم.

2- التفنن في المعاني:

قال أبو الفتح عثمان بن جني: المولدون يستشهد بهم في المعاني كما يستشهد بالقدماء في الألفاظ.[44]

لا شك في أن أشعار المولدين قد ازدهرت من الناحية المعنوية ازدهارا لم يشهده الشعر العربي من قبل، وبخاصة شعر أبي تمام والمتنبي والمعري وابن الرومي وابن المعتز وأبي العتاهية وأبي نواس وأمثالهم الذين أسهموا في هذا الإتجاه بنصيب وافر كما اهتموا بالصنعة اللفظية، وذلك لأنهم كانوا موهوبين بالملكة الخالقة تستمد قدرتها من سعة الشعور، وكانوا يعتمدون في الوصف على التصوير والتجسيم.

وآثار النقاد قضية الإبتداع بالمعاني بين القدماء والمحدثين، منهم من فضّل القدماء لاستغراقهم للمعاني وسبقهم المحدثين في ابتكارها، وهذا الإحساس سيطر على أذهان كثير من الشعراء والنقاد منذ قديم، كما قال عنترة:

هل غادر الشعراء من متردّم أم هل عرفت الدار بعد توهّم

وفي العصر الحديث نجد الدكتور غنيمي هلال يميل إلى هذا الرأي بل بالغ فيه واتهم المحدثين بتقليدهم القدماء في المعاني، وعدم ظهور شخصيتهم ومشاعرهم خلال أشعارهم، أبدى رأيه هذا تعليقا على قول ابن طباطبا في هذا القضية[45]، وناقشه الدكتور محمد أبو موسى[46].

ومنهم من يدافع عن المحدثين بسبقهم في المعاني التي لم تخطر على بال الشعراء القدماء، كما هو واضح من شعرهم، وأشار إليه ابن الرشيق كما تقدم.

والصواب أن الإبداع ليس بمختص بعصر دون عصر، لكل نصيب في ابتكار المعاني، نعم إن للقدماء أصالة؛ لكن لا ينكر في ذلك عن جهود المحدثين، كما قال ابن الأثير "إن باب الاجتهاد الفني وابتداع المعاني مفتوح إلى يوم القيامة"[47]، والخيال الواسع الذي نلحظه في الشعر العباسي كان بلا شك من أثر الحضارة الأعجمية ذات التصاوير.[48]

والمراد من المعاني الشعرية ضروب التمثيل والتشبيه والإستعارة[49]،

والمقصود من التمثيل هو المعاني العقلية التي يستنبطها الشاعر بالفطرة والتجارب، ويعبّر عنها في قالب لفظي جميل.

ومن النماذج في هذا الإتجاه قول بشار :

وجيش كجنح الليل يزحف بالحصى وبالشوك والخطي حمر ثعالبه
غدونا له والشمس في خدر أمها تطالعنا والطل لم يجر ذوائبه
إذا الملك الجبار صعّر خده مشينا إليه بالسيوف نعاتبه
كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوي كواكبه[50]

الفخر بالبلاء في الحروب قديم، غير أن جديدا واضحا يداخل هذه الأبيات المذكورة من قصيدة بشار في المدح، ومرده إلى مزاج الفارسي الأصل الذي أدى به إلى المبالغة ومجاوزة القصد الذي يعدّ من مميزات الطبع العربي الخالص، ليس هذا فحسب، بل أبدع بشار في التصوير[51]، كأن صورة المعركة ماثلة أمام القارئ تظهر سيوف بيضاء تتهاوى كأنها نجوم لامعة تتساقط، وفي البيت الثاني تشبيهه للشمس عند طلوعها بصبية تسترق النظر من خدر أمها غاية في الروعة.

ويذكر أن الأصمعي قال: ولد بشار أعمى فما نظر إلى الدنيا قط، وكان يشبه الأشياء بعضها ببعض في شعره، فيأتي بما لا يقدر البصراء أن يأتوا بمثله.[52]

وقول أبي نواس من قصيدة مدح بها الأمير الخطيب بن عبد الحميد :

ظلت حميا الكأس تبسطنا حتى تهتك بيننا الستر
في مجلس ضحك السرور به عن ناجذيه وحلّت الخمر[53]

كأنه جسّم معنى السرور وجعله إنسانا يضهه حتى يظهر ناجذاه وهو بعيد من آلام الحياة وحرّ إلا من إسار الخمر.

ويذكر أن العتابي لقي أبا نواس فقال له: يا أبا على أما خفت الله حيث تقول: وأخفت أهل الشرك. فقال له أبو نواس: فما خفت أنت الله حيث تقول :

ما زلت في غمرات الموت مطرحا يضيق عنى وسيع الرأي عن حيلي
فلم تزل دائبا تسعى بلطفك لي حتى اختلست حياتي من يدي أجلي

فقال العتابي: قد علم الله وعلمت.[54]

وقول أبي العتاهية :

إن الشباب حجة التصابي روائح الجنة في الشباب

وكأن الجاحظ يعجب بتصوير أبي العتاهية لنضرة الشباب وزهوته وجماله بروائح الجنة.[55]

وقول أبي تمام في مدح أبي دلف:

بجوده انصاعت الأيام لابسة شرخ الشباب وكانت حلة شرفا

حتى لو أن الليالي صوّرت لغدت أفعاله الغرّ في آذانها شنفا[56]

جسم الأيام وجعلها إنسانا، وجسم الشباب وجعله ثوبا لها، كذلك جسم الليالي وجعلها امرأة قد اتخذت من أفعال الممدوح الغرّ قرطا تتجلى به أذانها.

وقول البحتري يصف الطبيعة أثناء الربيع :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا من الحسن حتى كاد أن يتكلما

يفتقها برد الندى فكأنه يبث حديثا كان بالأمس مكتما

ومن شجر رد الربيع لباسه عليه كما نشرت وشيا منمنما

أحل فأبدى للعيون بشاشة وكأن قذي للعين إذا كان محرما[57]

فقد شخص الربيع وجعله فتاة حسناء، جاءت تختال بنفسها وتتيه بحسنها وجمالها، وشخص النوروز وجعله إنسانا، أقبل وسط الظلام الدامس يوقظ الورد من غفوته، وتمشت بينه قطرات الندى تفتح ما تجمع من أوراقه، فتفوح رائحة الورد وكأن هذه الرائحة الزكية الفواحة سر كان يطوي الورد عليه أحشاءه ويكتمه في صدره، ثم أذاعه وباح بمكنونه، وقد خلع الربيع على كثير من الأزهار والرياحين أثوابا زخرفت بألوان خلابة براقة، ثم شخص الشاعر الربيع إنسانا، وجعله قبل أن يقدم محرما ثم لما حل خلع ثياب الإحرام ولبس كل براق وخلاب من الثياب المزركشة.[58]

3- المصطلحات اللفظية والصياغة الفلسفية :

لا شك في أن كثيرا من الألفاظ الأجنبية تسربت إلى لغة الشعر وأسلوبه وذلك "لأن العرب أخذوا عن الأمم الأعجمية التي ذاعت في المجتمع الجديد، وتعلموا ظاهرة الإطناب عن الفرس وصاغوا الأسماء من الحروف والضمائر مثل الكمية والكيفية والماهية والهوية، وكما أدخلوا الألف والنون قبل ياء المتكلم مثل نفساني وروحاني، وهذه من خواص اللغة الآرية.[59]

ويقول القاضي الجرجاني: أمّا المحدثون فقد اتسعوا فيه حتى جاوزوا الحد لما احتاجوا إلى الإفهام، وقد أفرط أبو نواس من هذه الناحية.[60]

وتوجد الصياغة الفلسفية لدى شعراء الحكمة أمثال المتنبي وأبي نواس وابن الرومي والمعري وذلك لتأثرهم من الفلسفة اليونانية وانكبابهم على دراستها حتى ظهرت مصطلحاتها أو أدلتها المنطقية في شعرهم.

ومما يصور شيوع هذه الظاهرة قول أبي نواس :

حتى إذا اصطفت الأقداح وانتطحت بيض القوارير من أعيان كيوان

كلمة كيوان فارسية تعني زحل.[61]

ومن شعراء الذين استخدموا الألفاظ الفارسية في شعرهم والبة بن الحباب :

قابلتنا الكؤوس ودابرتنا النحوس

واليوم هرمز روز قد عظمته المجوس

فكلمة هرمز روز تعريب لأهوار مزد: إله النور عند الفرس[62]

ولم تخل أشعار أبي تمام من هذه الظاهرة يقول في مدح الخليفة المأمون :

في كل جوهرة فرند مشرق وهم الفرند لهؤلاء الناس[63]

والفرند كلمة فارسية، واصل معناها: جوهر السيف وماؤه.[64]

وتروي بعض كتب التاريخ والأدب، أن أحد الشعراء داعب الوزير خالد البرمكي وهو يحتفل بعيد النيروز فقال :

ليت شعرى أمالنا منك حظ يا هدايا الأمير في النيروز

ما على خالد بن برمك في الجو دنوال ينيله بعزيز

ليت لي جام فضة من هدايا ُه سوى ما به الأمير مجازي

فأمر له بجميع ما كان من الجامات (الآنية للشراب) والآواني الفضية الذهبية.[65]

"يعتقد أن النيروز هو اليوم الذي خلق الله عز وجل فيه النور"[66]

ومن الشواهد في أثر الفلسفة قول أبي تمام في وصف الخمر:

جهمية الأوصاف إلا أنهم قد لقبوها جوهر الأشياء[67]

فأبو تمام يعتمد في وصفه للخمرة على مذهب الجهمية في أسماء الله الحسنى وصفاته، حيث كان يمتنع عن تسمية الله بإسم من أسمائه حتى لا يثبت عليه من

التشبيه بالمخلوقات، وقد استمد أبو تمام شيئا من هذه الفكرة.[68]

وقوله من طراز فلسفي :

يا عاقد القلب عنّي هلاّ تذكّرت حلاّ

تركت مني قليلا من القليل أقلا

يكاد لا يتجزأ أقل في اللفظ من "لا"[69]

يقول النظام في هذا الصدد: أنت أشعر الناس في هذا المعنى والجزء الذي لا يتجزأ من دهرنا الأطول، نخوض فيه ما خرج فيه لنا من القول ما جمعته أنت في بيت واحدٍ.[70]

المصادر و مراجع

[1] انظر موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي، الدكتور زكي العشماوي، ط 1981م، دار النهضة العربية، ص: 73-101.

[2] المقدمة،ابن خلدون، ط 1429هـ، مؤسسة المختار (ص: 157)

[3] تاريخ الأدب العربي، السباعي بيومي، (ص: 9)

[4] موقف الشعر من الفن والحياة، (ص: 81)

[5] فصول في الشعر ونقده، الدكتور شوقي ضيف، ط الثانية، دار المعارف (ص: 57)

[6] انظر العمدة، ابن رشيق، ط 1976/1م، مكتبة الهلال، (ص 229/1)

[7] الوساطة،القاضي الجرجاني، ت البجاوي، منشورات المكتبة العربية بيروت، (ص: 18)

[8] الفن ومذاهبه، شوقي ضيف، ط العاشرة، دار المعارف، (ص: 129)

[9] أنظر العصر العباسي الأول، شوقي ضيف، ط العاشرة، دار المعارف، (ص: 141)

[10] فصول في الشعر ونقده، (ص: 54)

[11] المتنبي،الأستاذ محمود شاكر، ط 1976، مكتبة المدني، (ص: 336/2)

[12] أنظر العصر العباسي الأول، (ص: 143-144)

[13] المثل الثائر، ابن الأثير، تقديم أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، ط الأولى، دار نهضة مصر القاهرة، (ص: 277/3)

[14] يتيمة الدهر، تحقيق الأستاذ إبراهيم صقر، مكتبة مصر الفجالة، (19/1)

[15] ديوان أبي العتاهية، تحقيق وفاء الباني قمر، دار الجيل بيروت، (ص: 266)

[16] العمدة (237/2)

[17] الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، المر زباني، ط : 1968م، دار نهضة مصر، (398)

[18]المصدر السابق، ص: 262

[19]الموازنة بين الطائيين، الآمدي، تحقيق محمد محي الدين، دار الميسرة بيروت.

[20]انظر الفن ومذاهبه، شوقي ضيف، (ص: 185)

[21]سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ط الأولي، دار الكتب العلمية بيروت (ص: 62)

[22]كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، ط 1320هـ، مكتبة الآستانة، (ص : 41)

[23]أسرار البلاغة، تحقيق رشيد رضا، ط 1320هـ، مكتبة الآستانة، (ص: 3)

[24]العمدة،ابن رشيق، (229/1)

[25]النقد المنهجي عند العرب، غنيمي هلال، ط الأولى، دار نهضة مصر، (ص : 88)

[26]كتاب الصناعتين (ص : 304)

[27]انظر الفن ومذاهبه، (ص : 172)

[28]العمدة (161)

[29]تاريخ الشعر العربي حتى نهاية القرن الثاني الهجري، نجيب البهيتي، دار الثقافة، المغرب، (ص : 364)

[30]انظر الموازنة للآمدي، (ص : 125)

[31]أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، انيس المقدسي، دار العلم للملايين، (ص : 96)

[32]ديوان أبي تمام، تحقيق راجي الأسمر، ط الأولى، دار الكتب العلمية بيروت، (ص : 112/3)

[33]الموازنة،(ص : 125)

[34]الفن ومذاهبه، (ص : 224)

[35]الإيضاح،الخطيب القزويني، ط 1425/1، دار الكتاب العربي بيروت، (ص : 271)

[36]تاريخ الآداب العربية، السباعي بيومي، (ص : 410)

[37]المصدر السابق (ص : 410)

[38]الشعراء المحدثون في العصر العباسي، حسن درويش، ط 1989م، منشورات المكتبة العربية بيروت، (ص : 195)

[39]الإيضاح للقزويني، (ص : 240)

[40]المصدر السابق، والبيت في ديوانه 354/2.

[41]الإيضاح (ص : 240) والبيت في ديوانه (232/3)

[42]الإيضاح (ص : 246)

[43]المصدر السابق ص : 247 – والبيت في ديوانه 15/2

[44]العمدة (ص : 355/2)

[45] النقد الأدبي الحديث، غنيمي هلال، ط 1989/3م، دار نهضة مصر، (ص : 237)

[46] دراسة في البلاغة والشعر، الدكتور محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، (ص : 158)

[47] المثل السائر (ص : 219/3)

[48] مظاهر الشعوبية في الأدب العربي، محمد نبيه حجاب، ط الأولى، دار المعارف، (ص : 254)

[49] أمراء الشعر العربي (ص : 92)

[50] ديوان بشار، تحقيق السيد بدر الدين العلوي، دار الفكر العربي، ط الأولى، (ص : 46)

[51] انظر العصر العباسي الأول، شوقي ضيف، (ص : 211)

[52] الآغاني،أبو الفرج الأصبهاني، ط بولاق دار الفكر بيروت 1970م، (ص : 142/3)

[53] ديوان أبي نواس، تحقيق بدر الدين حاضري، محمد حمامي، ط الأولى، دار الشرق العربي بيروت (ص : 295)

[54] الموشح،المرزباني (ص : 416)

[55] اتجاهات الشعر العربي، مصطفى هدارة، ط 1413هـ، مكتبة الدراسات الأدبية، (ص : 619)

[56] ديوان أبي تمام، تحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف مصر، (ص : 263)

[57] ديوان البحتري، تحقيق حسن كامل الصيرفي، طبعة دار المعارف مصر، (ص : 2090)

[58] التيارات الأجنبية في الشعر العربي، عثمان موافي، (ص : 367)

[59] تاريخ آداب اللغة العربية، جورجي زيدان، ط 1924م، دار الهلال، ص : 41/2

[60] الوساطة،القاضي الجرجاني، تحقيق البجاوي، منشورات المكتبة العصرية، (ص : 462)

[61] ديوان أبي نواس، تحقيق بدر الدين وحمامي، (ص : 535)

[62] طبقات الشعراء لابن المعتز، تحقيق عبد الستار فرح، ط الثانية، دار المعارف، (87)

[63] ديوان أبي تمام، تحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف مصر، (ص : 246/2)

[64] المعرب من الكلام الأعجمي، أبو منصور الجواليقي، تحقيق أحمد شاكر، ط الأولى، 1942م، دار الكتب المصرية، (ص : 243)

[65] تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي، إبراهيم على أبو الخشب، ط الأولى، دار بيروت (ص : 46)

[66] نهاية الإرب في فنون الأدب، النويري، ط 1935م، دار الكتب المصرية، (185/1)

[67] ديوان أبي تمام، تحقيق إيليا الحاوي، (ص : 19)

[68] الشعر العباسي تطوره وقيمه الفنية، محمد أبو الأنوار، ط الثانية، دار المعارف، (ص : 96)

[69] أخبار أبي نواس، ابن منظور المصري، ط 1979/1م، دار بيروت، (ص 13/1)

[70] المصدر السابق : (149/1).